Neutrosophic Knowledge, Vol. 2, 2021
University of New Mexico

الهُوَيَّة الشخصية وتجاوز تناقضاتها

فاطمة أبو عالية [1]

[1] قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية - مصر;

Received: February 2021; *Accepted:* March 2021

الملخص: تعد الهوية الشخصية أحد أهم الألغاز التي حاول الإنسان سبرها على مدار تاريخ الفكر، ورغم محاولاته المضنية لمعرفة نفسه إلا أنه يصطدم عادة باحتواء داخله على تناقضات تُعجزه عن وضع تصور متكامل عن نفسه، وما يجعل من الهوية إشكالية هو أنها تضم تناقضات عديدة تدور وتتداخل معاً في أغلب الأحيان، لتصبح الذات محتوى للشيء وضده في الآن والمكان الواحد، فإذا نظرنا للهوية برؤية نيتروسوفية أمكننا تحليل الكل إلى أجزاء والتعرف عليه بصورة أوضح.

الكلمات الرئيسيّة: الهوية الشخصية- الإمكانية- الجدل- المطلق- النيتروسوفيا.

1. مقدمة

يمكن وصف الإنسان بأنه الموجود الذي باستطاعته إدراك الوجود والوعي به، وبناءً على رؤاه لهذا الوجود أقام الحضارات وأنتج الثقافات والفنون وطوَّر فهمه عن قوانين الكون لاكتشافه والتفاعل معه، وأحياناً السيطرة على بعض ظواهره. هذا الموجود الذي انطلق بكل صوب متطلعاً ومُنظِّراً وفاعلاً ومفعولاً به لم ينس النظر إلى ذاته، وإذا كان قريب المسافة مع غيره من أقرانه، ومتماهياً مع نفسه فإن ذلك لا يَعِد بسهولة مهمته في فهم هويته، أو فهم الآخر المشارك معه في الماهية الجامعة من حيث النوع البيولوجي، ولمّا كانت محاولات تفسير الإنسان قد تعددت واختلفت وتفرقت، فإن هذا البحث هدفه الوقوف على ماهية هذا الاختلاف، ومحاولة فهم النسق الشمولي الذي يجمع أجزاء هذا الشتات؛ وهذا من خلال تتبع تطوره الجدلي، مع دمج هذا الجدل في مطلق جامع نهائي تستقيم به صورة الموجود الإنساني الخارجية، وكذلك الأخذ في الحسبان أن محتوى هذا الكائن ليس فقط المتناقضات، بل هناك أيضاً خيوط تربط هذه المتناقضات، وتقرب بينها، وتحاول الوصول بهذا التركيب النسقي إلى اللانهائية التي يقطعها (أخيل) لحاقاً بسلحفاة سبقته في مفارقة (زينون الإيلي Zeno of Elea490-430 ق.م)، هذه الخيوط هي جوهر نيتروسوفيا الداخل الإنساني وأساس صنع الصورة المكتملة التي يندمج فيها الشيء وعكسه في إطار الكلية الجامعة.

2. مشكلة البحث

لدينا سؤال تقليدي ليس له إجابة قاطعة بالرغم من تعدد المحاولات للوصول إليها، وهو السؤال الشهير: ما هو الإنسان؟ بغض النظر عن نشأته البيولوجية التي دارت حولها الأقاويل والنظريات ما بين تطور، أو خلق مستقل، بل السؤال هنا عن جوهر هذا الكيان الموجود العاقل شبه المهيمن ظاهرياً على كوكبه، وتتمثل صعوبة الإجابة عن السؤال السابق في كون الإنسان محتوى عديد من التناقضات في اللحظة الواحدة وعلى مدار حياة الشخص، حيث يقبع بداخله الخير والشر والمحبة والكراهية واللذة والشقاء والرضا والسخط، كما أن حكمه على الشيء الواحد ومشاعره تجاهه قابلين للتفاوت والتغير.

3. أهمية البحث

تتمثل أهمية البحث في أنه محاولة للإجابة عن معضلة أرقت ولا تزال تؤرق الفكر الإنساني حتى الآن وهي معضلة فهم الهوية الشخصية، وذلك من خلال رؤية جديدة مكملة للفلسفات السابقة هي الفلسفة المحايدة أو النيتروسوفيا.

4. هدف البحث

يهدف البحث لمحاولة وضع الهوية الشخصية ضمن وحدة جامعة تؤلف بين تناقضاتها، وذلك وفق رؤية تتجاوز الاختلاف وتتبنى الائتلاف والبحث عن محايدات المتنافر. كما يهدف إلى إيضاح معنى المطلق وصيرورته الدائمة، بافتراض الشخص مطلق جامع للأفكار والتصورات والمشاعر.

5. حدود البحث

يقتصر البحث على التأصيل التاريخي لمشكلة الهوية الشخصية من منظور فلسفي، وعرض الهوية من خلال الجدل الهيجلي لبيان العلاقة بينه وبين الهوية من ناحية كونها مطلقاً يضم الفكرة والنقيض، ثم الإكمال بالنيتروسوفيا كنسيج يضم التناقضات ويكمل الرؤية الكلية للموجود الإنساني.

6. الدراسات السابقة

1. دراسة Florentin Smarandache (1991)

تحت عنوان Neutrosophia، حدد فيها الباحث معنى مصطلح النيتروسوفيا بوصفه منهجية جديدة يمكن العمل من خلالها من خلال المنطق الرياضي والاحتمالات.

2 . دراسة Shaun Gallagher (2013)

تحت عنوان A Pattern Theory of Self، حاول فيها الباحث وضع مفهوم للذات الإنسانية يتخذ مساراً نحو التوافق بدلاً من الاختلاف من خلال تطوير نظرية نمطية للذات تعمل على تحليل جوانب الهوية وتفسيرها.

3. دراسة (2014) كريم موسى حسين

تحت عنوان فلسفة نيتروسوفيا، وتعد رؤية تحليلية لفلسفة الفيلسوف الأمريكي Florentin Smarandache، حاول من خلالها الباحث بيان التطبيقات والانعكاسات المختلفة لهذا المنطق على المجالات المعرفية الأخرى، وإيضاح أهميته في حل غموض بعض المسائل العلمية والفكرية.

4. دراسة (2017) سامية حريزي

تحت عنوان الجدل وحركة التاريخ عند هيجل، وتوضح فيها الباحثة رؤية الفيلسوف الألماني جورج فريدريك هيجل لمفهوم الجدل المتصل بالصيرورة، وعلاقة ذلك بالتاريخ كتطبيق للجمع بين التناقضات.

المبحث الأول: التأصيل الفلسفي لمشكلة الهوية الشخصية

حاول الفلاسفة الوصول لتصور واضح ومحدد لطبيعة الهوية أكثر من مرة، حيث تناوله فلاسفة اليونان بالبحث من وجهة طبيعية وأخلاقية، محاولين تفسير الأصول التي جاء منها هذا الكائن وربطها بالعالم الذي يعيش فيه، وأنتجوا الثنائية الشهيرة بين نفس وجسد كلاهما يختلف عن الآخر، ثم توالت الفلسفات التي حاولت تفسير العلاقة بين هذا الموجود وبين الوجود نفسه، وحديثاً ما بين هذا الموجود وبين ذاته، واهتمت فلسفة الجمال والفن _في مظهرها البسيط_ بذلك الجانب الذي يبرز التفرد بين كائن قادر على صنع الجمال وإدراكه كالإنسان والكائنات الأخرى، وحاولت فلسفة الأخلاق تنظيم القيم الأخلاقية التي تربط الحياة الاجتماعية بين الأفراد ومعرفة مصدرها، كما اهتمت فلسفة السياسة بتحديد موقع الفرد في كيان سياسي ما وعلاقته بالآخر حاكماً كان أو محكوماً، وكذلك هدفت فلسفة العلوم للربط بين محتوي هذا الكائن من جانب مادي أو مجرد، وبين محتويات هذا العالم ومحاولة إيثاق العُرَي بينه وبين ما يجلب له النفع بصورة أكثر عملية.

ولكن كل تلك المحاولات تعد نوعاً من التصويب دون إصابة الهدف بشكل أكثر دقة، ربما لتشتت مجالات الدراسة في كل منها حين يختص كل فرع بجزء يخصه بعيداً عن نسق متكامل يحد الكيان بأكمله، وليس أدل على ذلك من أنه ليس لدينا إجابة شافية حتى الآن عن الهوية الإنسانية، وهنا يظهر التساؤل: كيف لكائن غاية وجوده فهم وتعقل الأشياء ألا يفهم ذاته بصورة واضحة؟ ربما لأنه دائم التناقض كثير الاختلاف

سواء بينه وبين أقرانه أو بينه وبين عمق نفسه، إذن كيف لهذا التناقض أن يُنتج وحدة ظاهرية؟ وهل هذه الوحدة نسبية تختلف باختلاف الموقف؟ وهل يمكن أن يكون جدلي الحجة وجدلي التكوين كذلك؟ وهل يمكن استنباط نسق شمولي معين نسير على هداه في فهم هذا الكيان المعقد؟

تُظهر نظرة سريعة إلى تاريخ الفلسفة مدى اهتمام الفلاسفة بتفسير الوجود وفقاً لثنائيات متضادة، فهناك في الفلسفة اليونانية وجود بارمنيدي ثابت يُوصف بأنه "غير مختلط تماماً باللاوجود، وهو خالٍ كلية من كل صيرورة، وطابع الوجود في معظمه سلسة من السلوب، ففيه لا يوجد تغير"[(1)]، يناقضه وجود هيراقليطي دائم التغير والحركة، فلا شيء يبقى على حاله لديه، وهو ينكر تماماً أي مظهر للثبات حتى لو كان ثباتاً نسبياً، " فالوجود موت يتلاشى، والموت وجود يزول، وكذلك الخير شر يتلاشى، والشر خير يزول، فالخير والشر والكون والفساد أمور تتلازم وتتفق في النظام العام، بحيث يمتنع تعيين خصائص ثابتة للأشياء". فيما تحدث (إمبادوكليس Empedocle 490-430 ق.م) عن قوتين تحكمان الوجود هما: المحبة والكراهية، وهما تحلان معاً في الأشياء، وتارة تعلو المحبة ليسود العالم السلام والطمأنينة، ثم تارة أخرى تأتي الكراهية لينحل ما كان متسقاً وتعم الفوضى، وهما يدخلان في كل موجود، سواء أكان مادة أو نفوس شخصية، " فليس الحب والكراهية إلا تجليات داخلنا للقوى الآلية للجذب والتنافر العاملة في العالم الواسع"، أما لاحقاً فكان (رينيه ديكارت Rene Descartes 1596-1650) وثنائيته عن النفس والجسد، وطبيعة كل منهما المختلفة عن الأخرى كأنهما كيانان مختلفان في ذات واحدة. ورغم تلك المحاولات ظل البحث في خط موازٍ للاتجاه السابق عن تناسق يشمل تلك المتضادات هو الشاغل لبعض كبار الفلاسفة، فهناك محاولات (أفلاطون Plato 427-347 ق.م) و(أرسطوطاليس - Aristotle 384-322ق.م) التوفيقية ما بين المثال المجرد والواقع العيني عند الأول، والقوة الممكنة والفعل عند الثاني، في محاولة لمزج الثبات بالتغير، وجاء (إيمانويل كانت Immanuel Kant -1724 1804) ليجمع الداخل العقلي بالخارج الطبيعي في طرفي المعرفة: الذات والوجود. وكان منطلق كل ذلك هو البحث عن الوحدة الكلية للأشياء، وهي تلك الوحدة التي بحث عنها (باروخ سبينوزا Baruch Spinoza 1632-1677م) حين قال بوحدة الوجود، وأثبت لله وجوداً لا متناهياً يضم كل شيء، إذ "لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الله، ولا أن يُتصور"، وجاء بعده (جوتفريد فيلهلم ليبنتز Gottfried Wilhelm Leibniz 1646-1716م) ليجعل من موناداته Monade الروحية _المكونة لجوهر الوجود_ صورة لا تكتمل ولا تتوافق إلا بالسير وفق طاقة الموناد الخالق الأعلى، فما المونادات في مجموعها إلا أجزاء لتلك الصورة الكلية، وكل الأشياء بالنهاية متصلة، تتأثر ببعضها، وتسير وفق خطة كبرى، حتى لو كان كل موناد على حده.

المبحث الثاني: الهوية الشخصية بدءاً من الجدل الهيجلي وإكمالاً بالنيتروسوفيا

يبدو_مما سبق_ أنَّ الفكر الفلسفي يميل في غالبه للتوحيد وتكوين الأنساق، وهو ما دفع الفيلسوف الألماني (فريدريك هيجل Georg Friedrich Hegel 1770 -1831م) لجمع ما وصلت إليه الفلسفة والفكر في صورة كلية وفقاً لنظام ثلاثي يبدأ من الفكرة، يليها السلب أو النقيض، ثم يكتمل النسق بالمطلق الذي يضمهما معاً، ورغم أن هذه الرحلة تستلزم الصيرورة في عملياتها، إلا أن المطلق النهائي "هو الواحد الخالي تماماً من كل صيرورة وكثرة... إن المطلق ليس ببساطة واحداً، أو ليس ببساطة كثرة، بل يجب أن يكون كثرة في واحد". لذلك هو مطلق غني بالتفاعلات والتناقضات، لكنه يبقى واحداً لا ينقسم ولا يتحلل. المطلق _إذن_ أشبه ما يكون بالموجود الإنساني، وليس المقصود هنا كونه مطلقاً بالمعنى الديني، بل هو مطلق بالمعنى الجدلي، وقد يتفق في بعض النواحي مع المطلق الهيجلي، ثم يعود ليختلف عنه في نواحٍ أخرى، ورغم رفض الوجوديون الأوائل للنسقية الهيجلية، وإبعادها عن كل ما هو إنساني شخصي، ومنهم (سورن كيركجارد- Soren Kierkegaard – 1813-1844) الذي رفض أي بناء مذهبي لا يعبر عن الطبيعة القلقة الحائرة التي تعتمل بداخل الفرد الوجودي، إذ برأيه "ما جدوى بناء المرء قصوراً فخمة، حافلة بالمنطق والوضوح، إذا كان سيضطر إلى أن ينام بعد ذلك في المخزن المجاور"، وبرغم ذلك فإنه لا يفسر التكوين التفاعلي الواحد المتكثر داخل الهوية الشخصية وفق تسلسل مفهوم، بل يجعلها أشبه بالوثبات أو الومضات التي تظهر فجأة دون ترابط، معلياً من شأن الجانب الروحي والديني، وجاعلاً له مهمة الإرشاد للإنسان وتحريكه، فكل رغبة تختلف عن رغبة مطلقه الديني لا يجب أن يُلتفت إليها، وربما يحوي كلامه بعضاً من الصحة، فليس للإنسان جانب واحد فقط، ولا يمكن إغفال روحانيته والتمسك بماديته فقط، كما أن تمسكه بمطلق أعلى خارجه يلتمس منه هدوء نفسه، هي وسيلة لكثير من الناس سواء اتفقت آراء الفلاسفة أو اختلفت مع كون الدين ملهاة أو وهم زائف، وعلى ذلك فإن الجانب العقلي أيضاً هو محور تفرد الإنسان عن ذاته، وبه يكون الوعي الذي يدرك المطلق والتقلبات الوجودية والنفسية، كما يدرك الأنساق، ومن هذه الأنساق رؤية (هيجل) التي تأتي البداية فيها بتصوره لمنهجه الجدلي، والذي يضم جميع نواحي فلسفته ويتخللها من الداخل؛ فالمنطق

والطبيعة والروح لكل منهم تطبيق في الجدل عنده، وفي النهاية يشترك ثلاثتهم في الصورة الكلية لمذهبه؛ بمعنى أنه جعل للمنطق خطوات ثلاث تبدأ بالفكرة ثم النقيض ومنها إلى المركب الجامع لهما، وهو عينه ما تم مع الطبيعة والروح ككيانات عقلية مفردة، وهو أثناء ذلك يعود ليجمع هذه الأركان الثلاثة معاً فيجعل من المنطق فكرته، والطبيعة نقيضها، والروح مركب يجمع كل ما سبق، ولكن الروح عنده بوصفها قمة المثلث ليست مستقلة عن الفكرتين السابقتين، وليست قابعة فوق قمة الهرم لتأخذ دون أن تتفاعل، بل إنها محتوى ما سبقها كله، "لقد تصور هيجل الروح كمطلق يشمل كل ما في النسق من تناقضات؛ الذات والموضوع، الداخلي والخارجي، وكذلك الأنحاء الزمنية الثلاثة"، فهي المنطق والطبيعة، وهي _أيضاً_ ليست أياً منهم، لأنها هي المطلق الذي يظل على واحديته رغم احتواءه على الكثرة، وكما أشار (أفلاطون) فإنَّ "فكرة الواحد وفكرة الكثير تتضمن كل منهما الأخرى، حتى أن الواحد لا يمكن التفكير فيه بدون الكثير. وفكرته ذاتها عن المطلق/ عالم المثل، هي عبارة عن كثرة في واحد، فهو كثرة لأنه يحتوي على مُثُل كثيرة، وهو واحد لأن هذه المُثل الكثيرة تشكل نسقاً عضوياً واحداً من المُثل التي تندرج تحت وحدة نهائية هي مثال الخير"، فالنسق إذا هو الكثرة والوحدة، وما يبقيه على تماسكه ويجعل منه مطلقاً هو ما يحكم النسق أي العقل، ويبدو أن (هيجل) قد جعل من العقل مقولته الأهم، وهو يقصد به ذلك الكيان المجرد الذي يؤثر في العالم من داخله ويتغلغل فيه، وهو القوة المحركة له، ولكنه لا يوجد وجوداً فردياً متمثلاً في هيئة شخص، بل يستقي منه الجميع معقوليتهم على درجات، وهذا العقل يبدأ معه من المنطق، وينطبق على الطبيعة، ويعود ليسمو في الروح، وكأنه يحوي جميع أركان نسقه، ويضم منهجه بالكامل من البداية للنهاية، وربما يكون ذلك ما كان يُقصد بقوله إنَّ "الفلسفة دائرة مغلقة تدور حول نفسها. فنحن هنا في نهاية مذهب الفلسفة نصل إلى الفلسفة ذاتها. وإذا ما تساءلنا: ما هي تلك الفلسفة التي وصلنا إليها؟ لكان الجواب الوحيد الممكن هو أن نبدأ من جديد من بداية المنطق. وهكذا سرنا حتى وصلنا إلى النهاية، وإذا أردنا تفسير هذه النهاية فإن علينا أن نعود من جديد إلى البداية، وتلك هي الدائرة المغلقة للفلسفة، فالمنطق الذي بدأنا منه يدرس الفكرة، ونحن ها هنا في نهاية فلسفة الروح نصل كذلك إلى الفكرة"، فإذا تأمل الناظر سيجد فلسفة (هيجل) قائمة على حركة دائرية تبدأ من العقل وتعود إليه، فالعقل إذن هو الصيرورة الخفية التي تتحول بها الأمور، وهو المحتوى لكل ما جمعه (هيجل) ونسقه وأضاف إليه، إذن فحركة الجدل عنده تتخذ هيئة متوالية، وإذ افتُرض منهجه عبارة عن سلسة في هيئتها، فإنها تضم مجموعة من الحلقات، وكل حلقة رغم استقلالها بنفسها ترتبط مع غيرها لتكوِّن السلسلة الأكبر، فلا يعود المرء يعرف من أين تبدأ السلسة لتنتهي، وكأنها تشبه تلك الصلة بين مونادات (ليبنتز) التي تتصل ببعضها لتكوِّن الشكل الأعم وفق تناسق عقلي، وأما ما يقع خلف هذا التسلسل أو الهدف من خلفه فهو العقل المدبر والجامع والمدرك للغايات.

ويمكن أن تُقاس الفكرة بالنحو السابق على الهوية؛ فبالفرض أنَّ الشخص هو المطلق الذي يضم جميع المتناقضات، فهو إذن "مجموع التفاعلات والصراعات التي ترتقي بالواقع نفسه من كونه جوهراً لا تمايز فيه، إلى كونه ذاتاً تنعكس على ذاتها وتحرز الوعي بالذات. فالذات هي اللا متناهي الحق الذي لا يكف عن توحيد المتناقضات"، وهو يشبه النسق الهيجلي في تكوينه وغناه وتناقضه، وما يجمع هذه التناقضات هو العقل الواعي الذي يملكه ويميزه عن غيره من الموجودات، فالوعي هو الأساس الذي قامت عليه المقولات الوجودية الخاصة بالشخص ومناظرة لمقولات الوجود العامة كالجوهر والكم والكيف وغيرها، والشخص يضم في جوَّانيته عدداً من المكونات الجدلية التي تبدأ من الفكرة وينازعها السلب لتطور إلى مركب، وينضم المركب إلى مركب آخر بقوة الصيرورة الواعية لتتكون الماهية، فلم يعد يهم إن اختلف رأيه عما كان، أو اختلف ذوقه بعد مدة من الزمن، لأنه يحافظ رغم ذلك على بقائه هو هو كهوية مفردة متطورة وجدلية. والأمر أشبه بمن يهوى صوت الفلوت/ الناي، ثم بعد مدة يتحول عن محبته تماماً، أو أن يُبقي عليها ولكن بدرجة خافتة، مع تحول هواه إلى آلة وترية أو نفخية أخرى، فاختلاف الذوق هنا جاء بتطور المزاج وتراكم خبرات جديدة، لكنه يبقى في النهاية مرتبط بالجمال الكامن في النغمة.

وهكذا يبدو أنَّ ذلك المطلق الإنساني جامع لتناقضات عدة، فهو المادة وما وراء المادة، وهو جزء من الوجود ومستقل عنه؛ إنَّه الموجود اللا محتجب القادر على إدراك الوجود حتى في ثنايا احتجاب ذاته، ولما لا وهو والوجود لا ينفصلان، بل إنه حتى في تأكيده على أفضلية الوجود الحقيقي، لا يعني بذلك اتجاهه نحو الانسحاب من العالم والقول بالعدمية، وإنما يدعو للتعالي على العالم الزائف بغية الوصول للحقيقة وكأنه يصعد إلى العالم الأفلاطوني ليستلهم منه النور ثم يعود إلى العالم الأرضي موجهاً ومؤثراً.

كما أن العدم لديه مرافق للوجود لأن الشخص هو الوحيد المدرك لحتمية موته أثناء حياته؛ بل إنَّه موجود ليموت، وهذا هو الاكتمال الذي تصل به آنيته إلى غايتها ونهاية صيرورتها، وفكرة الموت في حد ذاتها تلازم حياته وتتماهى معها، لأنه "ليس مجرد فكرة تعبر عن الخاتمة أو النهاية، بل هو إمكانية معاشة تعبر عن فعل التناهي، والموت خطوة في إدراك العدم الذي يستشعره ويفكر فيه، حتى رغم طغيان الوجود على الواقع، وهكذا يصبح الوجود واللا وجود مترافقين، ويتوازى الوجود مع العدم.

والهوية الوجودية لديها القدرة على استخلاص الجمال من حِضن القبح، وتدمج كلاهما معاً فلا تعود للتفرقة معنى، وذلك ما استوعبته المدرسة الدادية ومن بعدها السريالية في الفن التشكيلي. تلك الوحدة حاوية الاختلافات المدركة لأناها والآخر، هي من أعطت لـ (حذاء) (فينسنت

فان جوخ Vincent Van Gogh 1853-1890م) التالف قيمة فنية، وقادت (بابلو بيكاسو Pablo Picasso 1881-1973م) إلى تصوير قرية (جرونيكا) التي حوت فظائع من الحرب الأهلية الأسبانية كعمل فني ومصنف جمالي، وهي التي ارتقت بالجحيم ليصبح معزوفة ساحرة على يد (فرانز ليست Ferencz Liszt 1811- 1886م) بتصويره الموسيقي للكوميديا الإلهية لدي (دانتي أليجييري Dante Alighieri 1265-1321م)، كما وحدت بين ذائقة المؤمن _أيّاً كان إيمانه_ والملحد؛ إذ يستمعان إلى (كارمينا بورانا) للملحن الألماني (كارل أورف Carl Orff 1895-1982م)، كل ذلك يجزم بكون الهوية قادرة على أن تكون نسقاً متسعاً للمختلف، وكونها قادرة على التبديل بين القيم سواء أخلاقية أو جمالية، والأفكار المختلفة: سواء تباعاً كأن يعتنق المرء مبدأ ثم يتنازل عنه ويعتنق نقيضه؛ فلا صعوبة في كون الشخص اشتراكياً ثم رأسمالياً أو العكس. أو في الآن نفسه؛ كأن يكون سارقاً ولكنه يهتم بالفقراء كنموذج (روبين هود Robin Hood) أو (أرسين لوبين Arsene Lupin) بطل سلسلة قصص الكاتب (موريس لوبلان Maurice Leblanc 1864-1941م). فالإنسان هو موجود يحافظ على وحدته، رغم كون الاختلافات متعاقبة عليه، لذلك لا يكون في لحظة ما كما كان في اللحظة السابقة، بل يظل في حالة صيرورة دائمة يتشكل بها مطلقه، وتتحدد هويته شديدة الخصوصية. وهناك نقطة أخرى تحتاج لإيضاح؛ وهي أنَّ الشخص لا يتحول تحولات جِذرية في كل الأحيان؛ صحيح أنه قد يحب شيء معين ثم يكرهه لسبب أو لآخر، ولكنه في أحيان أخرى يظل في منطقة التدرج بين التناقضات، فالفرد لا يصح أن يُقال عنه خيِّر تماماً أو شرير كليةً، لأنه قد يكذب ويقتل ويقدم الإحسان، وهذا ما تراه النيتروسوفيا الرافضة لحدية التناقضات، والتي تقترب في توجهها من الرؤية الكلية للأشياء؛ حين تنظر إلى درجات اللون السبع في قوس المطر، لا للأبيض والأسود فقط، وتسعي في أهدافها إلى "نشر السلام بين الأفكار المتحاربة، وإلى إيقاظ نار الحرب بين الأفكار!" ، من أجل ذلك كان رفضها لتركيب (هيجل) الصارم غير المحايد، معللة ذلك بوجود احتمالات عدة من الأفكار المحايدة، وهذا الاتجاه يمكن تطبيقه على الإنسان بما يحويه من تغيرات وإمكانات لا حصر لها، وكذلك على أمور حياته ومشاعره وأفكاره، ويفسر ذلك (فلورنتين سمرندكه Florentin Smarandache1954-...م) قائلاً إنَّ : "الحياة _في مجملها_ عبارة عن نيتروسوفيا؛ تبكي اليوم، وتضحك غداً، ثم تراك لا تفعل أيٌّ منهما بعد الغد...كما أنَّ البشر يسلكون وفقاً لها؛ نرى ذلك عندما يتحول الصديق إلى عدو أو تنتهي الصداقة بالتجاهل.. وينطبق الأمر على الغني الذي يفقد ثروته ويفتقر، أو يتحول منتمياً إلى الطبقة الوسطى"، وهي في حسابها للمحايدات التي تقع بين المتناقضات، وللنظرة الكلية بديلاً عن الثنائيات الضدية، أكثر اتساقاً مع الرؤية التي تعد المطلق الإنساني الوجودي بما يتنازعه من أفكار وما يقوم به من أفعال، هو _في النهاية_ كيان تغذى على الإمكانات العديدة التي خرج بعضها للعالم الخارجي، ولم يتحقق بعضها الآخر، وهذه الإمكانات بينها مقاربات كثيرة ومفارقات أيضاً، لذلك أصبح التناقض المحوي بداخل المطلق الوجودي ليس تناقضاً تماماً إذا نظرنا إليه بالكلية، بل هو إمكانات لا حصر لها، تقرب بين المتباعد، وتمد بينه جسور من ذاتها لتشمله في وحدة واحدة.

النتائج:

1. في توضيح القول عن الإنسان بأنه مطلق وجودي، وكونه يحوي من التناقضات ما قد يصعب حصره، ويجعل مهمة تنميطه عسيرة، فإن ذلك ينبه إلى التوقف عن الأحكام الكلية على الأشخاص، حيث اتفقنا على أن الفرد لا يكون خيِّراً بالكلية، ولا شريراً بالتمام، ولكن كل منا يحوي جوانبه المختلفة والمتدرجة بين هذا وذاك، وصحيح أن توجه الشخص الأخلاقي السائد والعام قد يُظهر منه صفة عامة أيضاً، ولكن ذلك سيعني تجاهل كل الجوانب الأخرى بداخله، ويمنع إمكانية قبول الفعل الخيِّر لشخص عُرف بعمومية الشر، لذلك **نوصي** باستبدال الحكم العام بأحكام أخرى خاصة بالمواقف، وهي الرؤية التي يعتد بها القانون الإنساني المكتوب، حين يتم الحكم على الأفراد بناتج مواقف محددة، ثم يُعاد قبوله في المجتمع _إن أمكن_ بعد انقضاء ما عليه من تكفير للموقف السابق، وبذلك تُطرح إمكانية التغيير والتوبة عن ذنوب وجرائم سابقة. كما أن الإنسان في حالة الصيرورة والتفاعلية الدائمة يمكنه أن يتغير من حال إلى حال دون ثبات، حتى إن الحكم على المواقف يتطلب إحاطة بكل ظروف الموقف، وتفاعل الإمكانات داخل الفرد _وهذا غير ممكن_ لذا فإن فالحكم على المواقف هو حكم ترجيحي من وجهة نظر صاحبه وليس حكماً مطلقاً، وبهذا يكون الحكم الممكن الوحيد، هو حكم على نتيجة الموقف وما يقود إليه من وقائع ملموسة بيقين العمد.

وهكذا فإن موقف المجتمع الإنساني _المتخاذل في كثير من الأحيان_ من قبول أصحاب الأفعال غير الأخلاقية سابقاً كالمجرم التائب يوحي بعدم وعي بالطبيعة المتغيرة للإنسان، ويؤدي لزيادة الهوة بين الأنا والآخر واتساع إشكالية قبول هذا الآخر، لذلك لا بد من التوعية بهذا الأمر والحث على نبذ مصطلح الغيرية، واستبداله بالاختلاف التكاملي، والعمل على الإصلاح الأخلاقي وإدارة التوجهات الإنسانية للناحية الخيرية الأخلاقية لأجل صالح الجماعة والفرد كذلك، حينما يفهم مدى النفع العائد عليه من الالتزام بقوانين وأعراف المجتمع

المنتمي إليه. وعلى هذا **نوصي بأن** تقوم المؤسسات الحكومية بتشكيل فريق من علماء النفس والسلوك والاجتماع والفلاسفة وعمل حلقات علاج نفسي وتأهيل مجتمعي للمساجين المذنبين لمحاولة زيادة الوعي بالذات والآخرين والمجتمع، وتهذيب السلوك الضار الذي يتسبب في حدوث جرائم، ومحاولة السيطرة عليه، ضماناً لعدم تكرار الأمر بعد خروجهم من السجون، والأمر ذاته على الأشخاص العاديين بفرض اجتماعات توعية ونقاش دورية في المجتمعات الصغيرة شبيهة لخطبة الجمعة وقداس الأحد.

2. يختلف الإنسان كواقعة حرة نوعاً ما عن الوقائع الأخرى الطبيعية؛ من حيث أن الواقعة الطبيعية لو تكررت في الظروف نفسها لأتت بنتائج متطابقة تقريباً مع السابق _مع مراعاة بعض التغيرات الكمية الناتجة عن نظرية الشواش أو الفوضى المنظمة Chaos_ أما التجارب الإنسانية فهي متحركة ومتغيرة دائماً، وناتج ذلك خارجي وداخلي معاً، من حيث حساب تغير الخبرات المكتسبة، والمزاج الشخصي، وفي هذا دليل على تغير طبيعة الهوية وصيرورتها المستمرة، فالتغير سمة الهوية وأساسها، أما التوجه العام فهو ناتج اختيارها لإمكاناتها في المواقف التي تمر عليها، ولذلك فهي أبداً لا تكتمل إلا بعد انتهاء كل الإمكانات المعرضة لمواجهتها على مدار حياتها. وعلي ذلك يكون الموت هو نهايتها واكتمالها لدى أتباع الرأي اللا ديني. أما القول باستمرار الاكتمال بعد الموت، فلا يعني أن الهوية لا تحوز الاكتمال قط حتى بعد انتهاء وجودها في هذا العالم، وإنما معناه أن اتساع مدى التأثير العام للهوية في العالم والبناء الحضاري قد يؤدي للقول باستمرارها نوعاً ما، لكن بإمكاناتها القديمة، ولا مجال للقول بإمكانات جديدة تتحصل عليها، نظراً لبديهية العلاقة بين الاختيار والوعي، مثال ذلك أن أشخاص مثل (أفلاطون) أو (ألبرت أينشتاين Albert Einstein1879-1955) ما تزال أجزاء من هوياتهم تكتمل كلما تعرض أحد لنظرياتهم موافقة أو نقداً أو تأويلاً، وهذا الجانب المحدود الباقي على قيد الحياة من هذه الهويات منتفية الوجود الحقيقي في عالمنا يعني أن لهم تأثير بما سبق أن قاموا بفعله، وهو تأثير لا يعود عليهم بحال من الأحوال، وإنما يرتبط بهويات أخرى تأخذ منهم وترد.

3. ننوه إلى أن الداعي للقول بجوانب الطبيعة المتغيرة للهوية الشخصية، وعدم الالتزام بالوقوف عند المطلق الهيجلي، والعودة مرة أخرى إلي بداية الانطلاقة الجدلية لإكمال دائرة الصيرورة الهوياتية بدلاً من المركب الثلاثي التقليدي، هو أنَّ الاتفاق مع (هيجل) في عدّ المطلق هو الكمال، وباعتبار أن فلسفته حسب نظرته هي نهاية الفلسفة ودرتها الخاتمة، يلغي التطورات التي لحقت أفكاره والمدارس الفلسفية التي نشأت بعده. كما أنه بتطبيق جدله الثلاثي الرأسي نفسه فإن فلسفته المنطقية المنهجية النسقية إذا وصفت بالفكرة، يكون نقيضها الفلسفة الوجودية، ثم يأتي مطلق آخر يكلله (مارتن هيدجر Martin Heidegger – 1889-1976) ليربط بين الفكرة والنقيض حين نظر للإنسان بوصفه وجوداً موجودياً. ما يقود للقول إن هذا المطلق الأخير ربما يتحول إلى فكرة ثانية حين وضعه في جدل مع فلسفات مختلفة أخرى، ويدعم القول بالصيرورة الدائرية في طبيعة المطلق الإنساني، والتي تتيح الفرصة لظهور الفروق النيتروسوفية.

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

1. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، 2014.
2. ولتر ستيس: تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، 1984م.
3. باروخ سبينوزا: علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بدعم مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، تشرين الأول (أكتوبر)،2009م.
4. جوتفريد فيلهلم ليبنتز: المونادولوجيا، ترجمة: ألبير نصري نادر، مراجعة المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، أيار (مايو)2015م.
5. ريجيس جوليفيه: المذاهب الوجودية من كيركجارد إلى جان بول سارتر، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الآداب، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، 1988م.
6. إمام عبد الفتاح إمام: تطور الجدل بعد هيجل، الكتاب الثالث: جدل الإنسان، الطبعة الثالثة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 2007م.
7. ولتر ستيس: فلسفة هيجل (المجلد الأول: المنطق وفلسفة الطبيعة)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، بيروت- لبنان، 2007م.
8. فلسفة هيجل (الجزء الثاني: فلسفة الروح)، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، بيروت- لبنان، 2005م.

9. جوتفريد فيلهلم ليبنتز: المونادولوجيا، ترجمة: ألبير نصري نادر، مراجعة المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع اللجنة الوطنية اللبنانية لليونسكو، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، أيار (مايو)2015م.
10. يوسف سلامة: مفهوم السلب عند هيجل، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر،2001م.
11. عبد الغفار مكاوي: تقديم كتاب/ نداء الحقيقة لمارتن هيدجر(السؤال عن الوجود)، دار الثقافة، سلسلة النصوص الفلسفية، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، 1977م.
12. مجاهد عبد المنعم مجاهد: هيدجر (راعي الوجود)، أعلام الثقافة المعاصرون، مكتبة دار الكلمة، الطبعة الأولي، القاهرة – مصر، 2010م.
13. زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، القاهرة- مصر، 1998م.
14. نانسي هيوستن: أساتذة اليأس(النزعة العدمية في الأدب الأوروبي)، ترجمة وليد السويركي، مراجعة أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، الطبعة الأولى، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، 1433هـ – 2012م.
15. إميل سيوران، مثالب الولادة، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، 2015م، ص 14. وإميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق(مقايسات المرارة)، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا- ألمانيا، 2003م.
16. صلاح عثمان: الفلسفة العربية من منظور نيتروسوفي، منشأة المعارف، الطبعة الأولى، الإسكندرية- مصر، 2007م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Sreekumar Nellickappilly: Aspects of Western Philosophy, WWW.Academia.edu,chapter 24, P.2.
2. Florentin Smarandache: Neutrosophy. Neutrosophic Probability,set, and Logic. Analytic Synthesis and Synthetic Analysis (Article), American Research Press, First Version, 1998, P. 6.
3. Stephen Mulhall: Heidegger and Being and Time, Second edition, Routledge, London and New York, 2005, P.117.
4. Francis H. Bradley: Appearance and Reality (A Metaphysical Essays), Oxford, Second Edition, 1924, P. 46.